

مساهمة المرأة الجزائرية في الثورة التحريرية (1954-1962)

أ. بونقاب مختار

جامعة معسكر

إن المتتبع لتاريخ الجزائر إبان الثورة التحريرية، لا يمكنه المرور دون التوقف عند تلك المواقف والإسهامات الوطنية الثورية التي عبر عنها الرجال والنساء - على حد سواء - للوصول إلى الحرية والاستقلال. وإذا كان الحديث عامة يميل إلى أعمال وأدوار الرجال فإن النساء في كثير من الحالات والمناسبات لعبن الدور الأساس في عملية التغيير أو النجاح بوقوفهن إلى جانب الرجال تارة، أو مساهمتهن الفردية تارة أخرى.

تلك هي حالة المرأة الجزائرية خلال الثورة وقبل الثورة وبعدها يحفظ لنا التاريخ مقاومة لالة فاطمة نسومر، والدور البطولي لجميلة بوحيرد مرورا بفطيمات وجميلات كثيرات. في هذا السياق جاء الموضوع الموسوم بـ "مساهمة المرأة الجزائرية في الثورة التحريرية" بهدف المساهمة في تاريخ الجزائر خلال الثورة. محاولين الإجابة على جملة من التساؤلات أهمها:

- ما مدى مساهمة المرأة الجزائرية في الثورة التحريرية؟

- هل اقتصر دورها على العمل العسكري؟ أم تجاوزته إلى مشاركات أخرى؟

- هل جاءت مشاركة المرأة في الثورة عفوية؟ أم كانت نتاجا للوعي السياسي الذي وصلت إليه؟

للإجابة عن هذه الأسئلة وأخرى، حاولنا جمع بعض الكتابات التاريخية حول الموضوع والتي تتضمن شهادات عن المرأة الجزائرية والثورة التحريرية ومن ثم تقديمها في شكل موجز كمساهمة متواضعة بغية إثراء محتوى هذا اليوم الدراسي وتنويع محاوره.

المرأة الجزائرية قبل الثورة:

عرفت المرأة الجزائرية حياة قاسية وظروف صعبة كالجهل والفقر والتمييز، إلا أن ذلك لم يكن يعن الاستسلام والفشل، كما انه لم يكن يشمل كل النساء، فبعضهن ثبت

أمام المحن، وصمد أمام الشدائد. زيادة على مشاركة المرأة في الفلاحة والحرف ومختلف الأعمال فإن اسمها يبرز خلال فترة الاحتلال من خلال فاطمة نسومر¹ كبطلة وقائدة مقاومة، ليتطور دورها في فترة لاحقة مع ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان لها دورا رياديا في تعليم المرأة للنهوض بالمجتمع الجزائري. كان ابن باديس يحث على وجوب تعليم المرأة على أساس الدين والاقومية والأخلاق².

بعد حوادث ماي 1945 برز نضال المرأة الجزائرية جليا من خلال الخلايا النسوية لحزب الشعب التي تولد عنها "اتحاد نساء الجزائر"، وجمعية النساء المسلمات الجزائريات". أما خلال الثورة فلم تتغل المرأة الجزائرية عن واجبها إلى جانب الرجل على اختلاف مستوياتها وطبقاتها الاجتماعية.

المرأة الجندية (المجاهدة):

أحدثت مشاركة المرأة في الكفاح المسلح إلى جانب الرجل انقلبا جذريا في المفاهيم والأفكار³. وقد استقبل جيش التحرير المرأة المجاهدة باعتزاز وفخر واحترام، وهي التي وهبت نفسها في سبيل تحرير الوطن. واعتبرت بنت جبهة التحرير وجيش التحرير، فبرزت شخصيتها وأدركت أنها تعيش في عالم جديد يسوده الصفاء والإخاء⁴، وهذا ما أشاد به مؤتمر الصومام المنعقد في أوت 1956. إذ جاء في مقرراته: "إننا لنحبي بإعجاب وتقدير ذلك المثل الذي نضرب به في الشجاعة الثورية الفتيات والنساء والزوجات والأمهات ذلك المثل الذي تضرب به جميع المجاهدات اللاتي يشاركن بنشاط كبير بالسلاح أحيانا في الكفاح المقدس في سبيل تحرير الوطن"⁵.

ومنه يتبدى لنا التقدير الذي كان يكنه رجال الثورة خاصة والشعب الجزائري عامة للمرأة الجندية التي تخلت عن مهمتها الطبيعية لصالح مهمة أكثر أهمية، لها من الأولوية ما جعل المشاركة فيها أمرا ضروريا تقتضيه ظروف البلاد وأوضاع العباد، فقامت بأدوار جديدة (الجهاد) تعبيرا منها عن مساندتها للرجل وتعاطفها معه من ناحية وتأكيدا على أن المرأة الجزائرية لن تتغلى عن وطنها وشرفها فهي أيضا تلبّي النداء كلما استدعى الأمر ذلك.

وعن الأعمال التي كانت تقوم بها المجاهدة في جيش التحرير تذكر هند قدير: "ترتدي الجندي الزي العسكري مثل الجنود وتحمل سلاحا أوتوماتيكيا من نوع الرشاشة أو البندقية، ولها مسدس وقنابل يدوية تعلق في حزامها، تبقى هؤلاء الجنديات بصفة مستمرة مع فرق الجيش التي تنظم إليها وتسير معهم ليل نهار في جميع تنقلاتهم سواء أيام السلم أو أيام الحرب والمعارك".⁶

تميزت المرأة الجزائرية بصلابتها وقوة تحملها الصعاب وصبرها أمام الشدائد، كما أن دورها في الحروب والمعارك لم يكن يختلف أو يقل في كثير من الحالات عن دور المجاهد. وتورد أنيسة بركات ما يعزز ذلك وهو أن بعض المجاهدات الآتي يتميزن بالكفاءة والشجاعة تمكن من الوصول إلى مناصب قيادية والاضطلاع بمسؤوليات ثورية هامة.⁷ قام بعض النساء بدور المحافظة السياسية ومراقبة الجنديات والاطلاع على الوضع السياسي والاجتماعي عامة. إضافة إلى تقديم دروس حول مبادئ الثورة والقيم النضالية، وكذا التعرف على موقف الجنديات من جيش وجهة التحرير، قد يستمر هذا العمل عدة أشهر تنتهي برفع تقريرها إلى الجهات المسؤولة.⁸ يتجسد ما ذكرناه في تقديم صورة عن بعض المجاهدات وما برهن عنه من شجاعة وإقدام على الكفاح والتضحية:

- ملكية قائد: كانت مثال للجندي التي لا تتخلى عن بذلها العسكرية مثلها مثل رجال جيش التحرير، وسلاحها لا يفارقها أبدا. لقد استشهدت وهي تطلق النار على حصار شنه عليها جنود العدو في منطقة القبائل.⁹

المرأة الفدائية:

يتمثل دورها في تنفيذ العمليات في المدن، فهي تعيش وسط السكان، لا ترتدي الزي العسكري بل تبقى بزيها النسوي المعتاد حتى لا تثير شكوك السلطات الاستعمارية، فأغلب الفدائيات من الطالبات اللاتي تركن دراستهن إثر إضراب الطلبة بتاريخ 19 ماي 1956. تتميز الفدائية بتربية مثالية وتتصف بخصال سامية كالصمود والصلاية وهي مشحونة بالسرية المطبقة، لا تهاب الموت. تهتم بتنفيذ عمليات بالغة الأهمية كتدمير مراكز العدو، والهجوم على مراكز الشرطة والمقاهي والحانات ومناطق تجمع المستوطنين زيادة على اغتيال

جنود العدو والخونة.¹⁰ وعن تأثير هذه العمليات يذكر محمد قنطاري "أنها أحد أشكال الحرب النفسية فهي تعمل على نشر الرعب والفرع في صفوف الفرنسيين وبالتالي إفشال قوتهم وانهميار معنوياتهم".¹¹ وغالبا ما كانت الفدائيات تقمن بمهامهن في وضع الناباردون أن يشعر بهم أحد، وبعض الفدائيات كن يساهمن في صنع المتفجرات ويمكن أن ياما عديدا داخل المخابئ القائمة في بطون الديار.¹²

إن حرب الحقائق هو المصطلح الذي كان يطلق على أعمال الفدائيات الجزائريات خلال الثورة التحريرية ضد الاحتلال الفرنسي وإن حملة الحقائق كان الاسم الذي يطلق على هؤلاء الفتيات كون الحقيقة كانت محل ومكان السلاح أو القنبلة. غالبا ما كانت الفدائيات يلبسن الزي الأوروبي، ويتصرفن وفقا للنمط الفرنسي حتى يتمكن من اجتياز حواجز الجيش الفرنسي دون مشاكل. تعد حسيبة بن بوعلي من بين البطلات الجزائريات، كانت تعمل ضمن شبكة سرية مهمتها نقل وتوصيل المصنوعات المتفجرة من مكان صنعها إلى أماكن توزيعها وزرعها في العاصمة.¹³ تزايد نشاط حسيبة النضالي ضد قوات الاحتلال، وتمكنت من تدويع ضباط المخابرات الفرنسية، ونجدها في النهاية تفضل الاستشهاد تحت ركام بيت بالقصبة على أن تسلم نفسها للجلادين.

لا يفوتنا في هذا المقام الإشارة إلى الجميلات الثلاث: جميلة بوحيرد، جميلة بوعزة، جميلة بوباشة، اللواتي كن مثال لشجاعة المرأة الجزائرية وتحديها لوسائل التعذيب.¹⁴ وقد أثرن اعجاب العالم لمواقفهن وأعمالهن البطولية، وتحركت عدة جهات سياسية وإنسانية لرفع حكم الإعدام الذي أصدرته السلطة الفرنسية في حق جميلة بوحيرد فوصلت بذلك إلى مصف العالمية.¹⁵

المرأة المسبلة:

زيادة على عملية الاتصال بين الجبهة وجيش التحرير، تقمن المسبلات بأعمال مختلفة ومهام عدة كحراسة المجاهدين أثناء تنفيذ عملياتهم، وحمايتهم حتى الوصول إلى مواقعهم، وكذا إخفاء سلاح الفدائيين بعد إنجاز عملياتهم ومرافقتهم إلى الأماكن الآمنة. وقد لخصت يحيوي مسعودة دور المسبلات في المهام التالية:¹⁶

■ **التموين:** إذ تعد المسبلة بمثابة الرئة التي يتنفس بها جيش التحرير الوطني من خلال ضمان استمرارية تموين المجاهدين والمناضلين

■ **الأيواء:** وذلك باستقبال المجاهدين في منازلهم التي تحولت إلى مراكز التقاء واجتماع.

■ **الاستعلامات:** تنتقل المسبلات من مكان لآخر للاستطلاع على مواقع الجيش الفرنسي وجمع المعلومات بشأن كل تحركاته وتوجهاته. لتجنيب أفراد الثورة من الوقوع في الكمائن. إذ وصل ببعضهن الأمر إلى حد الزواج من فرنسيين بهدف الحصول على معلومات عن قوات الجيش الفرنسي.¹⁷

تؤكد هذا الدور أنيسة بركات حين تقول: كانت (المسبلات) تهتم بالاتصال بين الجبهة والجيش، وتقوم بحراسة المجاهدين أثناء عملياتهم التدميرية، وبعد تنفيذ مشاريعهم تصونهم وترافقهم إلى مراكزهم متحدية يقظة العدو، وأحيانا تخفي السلاح وتحمل الوثائق السرية إلى المسؤولين المكلفين بها، وتشتري الأدوية واللوازم التي يحتاجها الثوار ثم تؤديها رغم حراسة القوات الفرنسية وحملات التفتيش.¹⁸

في هذا السياق نستشهد باعتراف جاك ماسو في كتابه "معركة الجزائر الحقيقية" الذي أشار إلى الدور البارز الذي لعبته المرأة الجزائرية في الثورة التحريرية قائلا: لقد حملت المرأة الجزائرية القنابل ووضعتها في الأماكن المناسبة وأصبحت جماعة تشكل شبكة حقيقية بفضل أجهزتها وجمالها الفاتن والبراءة المصطنعة في سلوكها استطاعت بكل سهولة أن تخترق الأوساط التي تريدتها دون إثارة انتباه العدو... وتمكنت من تنفيذ مهام ذات ثقة...

في ختام هذه الورقة يمكننا رصد النتائج التالية:

- إن مشاركة المرأة الجزائرية في الثورة كان نتاج وعيها وإدراكها بالمسؤولية الملقاة على عاتقها اتجاه وطنها، وإن دورها لم يكن محصورا على الجانب العسكري النضالي فحسب. بل تواصل مع أدوارها الاجتماعية، التربوية والاقتصادية.

- من المواقف المشرفة للمرأة الجزائرية هو تبرع بعض الفتيات بمهورهن لصالح الثورة. كما نسجل رفض بعضهن الزواج برجال لم يلتحقوا بالثورة.
- تحدث المرأة الجزائرية في السجون والمعتقلات سياسة الاستعمار الفرنسي ومختلف أساليب وفتن التعذيب بصمودها وثباتها بل ساهمت في إرشاد وتوعية المعتقلين الأميين وبذلك تحولت المحتشدات إلى مدارس لتكوين إطارات جبهة التحرير.
- امتد دور المرأة الجزائرية إبان الثورة إلى خارج البلاد واتسعت أعمالها إلى صنع المتفجرات وتنظيف الأسلحة وإعداد الأدوية، وخياطة الملابس والاعلام الوطنية، وإعداد التقارير والمنشورات واستقبال اللاجئين وإسعاف الجرحى والمشاركة في المظاهرات للتعريف بالقضية الجزائرية، وجمع الاشتراكات والأموال للثورة.
- وتبقى المرأة الجزائرية رافضة لكل أنواع الاستغلال والاستعباد والانقياد طامحة إلى الحرية والاعتناق، ولن تتخلى عن مسؤولياتها ولن تبخل عن الجزائر بكل ما لديها، إذ كانت ولا تزال سخية معطاءة كيف لا والأمر يتعلق بوطنها الجزائر الذي سقته دماء الشهداء الطاهرة.

الإحالات:

- 1- فاطمة نسومر: قائدة مقاومة شعبية ضد الاحتلال الفرنسي، تميزت بجمالها وأدبها وذكائها، ولدت في عائلة محافظة، انضمت إلى ثورة بويغلة، ثم قاومت التدخل الفرنسي ببلاد القبائل.
- 2- بوضرساية، بوعزة. دور المرأة الجزائرية المثقفة في الثورة التحريرية ملئى كفاح المرأة الجزائرية. المركز الوطني للدراسات في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2009، ص225.
- 3- بالرغم من مشاركة المرأة الجزائرية في المقاومات الشعبية. إلا أن دورها تراجع بعد ذلك خلال فترة الحركة الوطنية. ولذلك فإن بروزها خلال الثورة من جديد كان مغاير للعرف وغير الكثير من المفاهيم والأفكار عن المرأة.
- 4- أنيسة، بركات درار. نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص29.
- 5- المدني، أحمد توفيق، حياة كفاح، ج3- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص260.
- 6- هند، فدير. دور المرأة أثناء الثورة التحريرية ملئى كفاح المرأة الجزائرية، ط2- المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، ص25.
- 7- أنيسة، بركات درار، نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، الذاكرة العدد الرابع، سنة 1996، ص110.

- 8- بوصفصاف، عبد الكريم، جهاد المرأة الجزائرية وتضحياتها الكبرى في ولاية سطيف، مطبعة عمار قرني، باتنة، 1997، ص 26.
- 9- بشار، قويدر، قراءة في أدبيات نضال المرأة الجزائرية إبان الثورة، ملتقى كفاح المرأة الجزائرية، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954- ص 245.
- 10- راجع: أنيسة، بركات درار، نضال المرأة الجزائرية خلال ثورة التحرير أو محمد قنطاوي، من بطولات المرأة الجزائرية في الثورة وجرائم الاستعمار الفرنسي.
- 11- قنطاوي، محمد، من بطولات المرأة الجزائرية في الثورة وجرائم الاستعمار الفرنسي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران 2007، ص 34.
- 12- كافي، علي، مذكرات الرئيس علي كافي من المناهض السهامي إلى القائد العسكري دار القصبة للنشر، الجزائر، 2011، ص 199.
- 13- الجعيد، خليفة، حوار حول الثورة، ج 1- موقف للنشر، الجزائر، 2009، ص 427.
- 14- بشار، قويدر، المرجع السابق، ص 245.
- 15- جاكرو، لحسن، موقف الرأي العام العالمي من قضية جميلة بوحيرد، معاضرة تحت الطبع بمؤسسة التميمي، تونس.
- 16- بجاوي، مسعودة، دور المرأة في الثورة التحريرية، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954- الجزائر 2007، ص 34.
- 17- نفسه، ص 20.
- 18- راجع: أنيسة بركات درار، نضال المرأة الجزائرية، الذاكرة، ص. 142- 143.